خطبة صلاة الجمعة 30/3/2012 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، المالكي، دمشق
www.dr-shaal.com

سلسلة قرأت في كتاب

(خاتمة القرآن)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].

هذه هي الخطبة الثلاثون الخاتمة في سلسلة "قرأت في كتاب"، أختار لكم فيها فوائد منثورة في كتب قرأتها أو بعضها، ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

(خاتمة القرآن)

تحدثت هذه الخطب عن: الفساد: الأسباب والعواقب، والإصلاح، وعن مقاصد الحكم في الإسلام، وعن الحقوق المدنية، وعن المواطنة، وعن الإسلام والعدالة، وعن الكلام الرصين، وعن الظلم، وعن مالك الملك، وعن سياسة الباب المفتوح، وعن الدستور الإسلامي، وعن الأعمدة السبعة للنظام الإسلامي، وعن الغلو في الحب والكره، وعن

درسين من الهجرة، وعن التعاون، وعن دمشق، وعن الصدقات المنثورة، وعن الإيثار، وعن سيدنا المسيح عليه السلام، وعن العزة، وعن الفَرَج بعد الشدَّة، وعن الدفاع عن الرعية، وعن اليأس، وعن إطعام الطعام وسقي الماء، وعن نصرة المظلوم، وعن فضائل الشام، وعن اصطناع المعروف، وعن (يا عبادي إني حرمت الظلم)، وعن التعاضد والتساعد، وعن الإيمان والأمانة والأمن.

ولئن كنت في الخطب الماضية أقرأ عليكم من كتب الناس فأنا اليوم أختم بخير الخواتيم، وأقرأ عليكم في كتاب رب الناس، سائلاً الله تعالى أن يختم لنا جميعاً بخاتمة الحسنى..

أليست الأمور بخواتيمها؟

وقد اخترت في آخر خطبة من هذه السلسلة أن أحدثكم عن آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي خاتمة القرآن الكريم، وهي الآية الحادية والثمانون بعد المائتين من سورة البقرة، قال عنها المفسرون: هذه الآية خَتمٌ للتنزيل وختمٌ لتمام المعنى في سورة البقرة التي هي سَنام القرآن وفُسطاطه، وخَتمٌ لكل موعظة وكل خَتم.

قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: آخر آية نزلت من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]، قال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: (يا محمد، ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة).

ولم يمكث بعدها النبي صلى الله عليه وسلم إلا ليالٍ وأياماً معدودات حتى توفاه الله تعالى.

قال الإمام الطبري في تفسير الآية: (احذروا أيها الناس يوماً تُرجعون فيه إلى الله فتلقونه فيه أن تَردوا عليه بسيئاتٍ تُهلكُكم، أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحُكم فتهتكُ أستاركم، أو بموبقات توبِقكم، فتوجبُ لكم من عقاب الله ما لا قِبل لكم به، وإنه يوم مجازاة بالأعمال، لا يومَ استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، تُوَفَّى فيه كلُّ نفس أجرَها على ما قدمت واكتسبت من سيئ وصالح، لا تُغادَر فيه صغيرةٌ ولا كبيرة من خير وشر إلا أُحضِرت، فوُفِّيت جزاءَها بالعدل من ربها، وهم لا يُظلَمون، وكيف يَظلم مَن جازى بالإساءة مثلَها، وبالحسنة عشرَ أمثالها؟!).

عن جابر –رضي الله عنه– قال: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ قَالَ: ((أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ)). قَالَ فِتْيَةٌ مِنهم: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا، فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَت الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا. قَالَ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: ((صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ، وهو غير متعتع –أي منزعج قلق–)) [ابن ماجه والطبراني في الأوسط].

أيها الإخوة:

قال الحافظ ابن رجب: (أصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافُه ويحذرُه وقايةً تقيه منه).

وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة:96]، والمعنى: اتقوا سخطَه وغضبَه وهو أعظم ما يُتَّقى.

وتارةً تضاف إلى عقاب الله، أو إلى مكانه كالنار، أو إلى زمانه كيوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:131]، وقال: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ﴾ [البقرة:281]

كان طلق بن حبيب يقول: (إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى. قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله).

أيها الإخوة:

المرء فينا محتاج للتقوى حياته، وهو في أيام الشدائد والأزمات والضيق والكربات أشدُّ لها احتياجاً، ففي مثل هذه الأزمة التي نعيش ما اتقى اللهَ رجلٌ ينقل الأخبار الكاذبة، وما اتقى اللهَ رجلٌ غالى بأسعار بضائعه من دون مبرر، وما اتقى النارَ شابٌّ مُصِرٌّ على معصية

يتبع بها هواه لا يخالفه، وما اتقى يومَ القيامة أقوامٌ آذوا وظلموا واعتدوا على الحرمات المعصومة، وما اتقى النار الظالمون.

المرء فينا محتاج للتقوى حياتَه، وهو في أيام الشدائد والأزمات والضيق والكربات أشدّ لها احتياجاً، فأنت تقرأ تقوى الله في رجال يبادرون إلى مساعدة الناس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وتقرأ التقوى في شباب تركوا المعاصي السالفات ومضوا إلى الطاعة ومعونة الخلق، وتراها في نساء بادرنَ الخير وبذلنَ الوسع في العطاء.

كتبت إحدى الأخوات على صفحة التواصل الاجتماعي تقول: إن سماحةَ مديرِ شركتهم دعته -خلافاً لغيره- إلى زيادة أجور موظفيه في هذه الأيام؛ لأنه يرى ارتفاع الأسعار، فراحت دعوات المشتركين في صفحة التواصل الاجتماعي تتوالى تَتْرى له بالبركة والسعة والحفظ.

ولما ذكرتُ في خطبة ماضية أن امرأة تؤجر دارها بخمسة عشر ألفا لكنها أجرتها لعائلة متضررة بثمانية آلاف مشاركة لهم ومؤازرة، راسلني أحد الإخوة ليقول إنَّ أُسَراً دمشقية وغيرَ دمشقية تؤجّر دورها للمتضرّرين من دون مقابل تقرُّباً إلى الله تعالى وبرَّاً بخلقه..

إنها صور لتقوى الله وتطبيق لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قال الإمام الرازي في تفسيره:

(اعلم أن هذه الآية في العظماء؛ كانوا أصحاب ثروة وجلال وأنصار وأعوان، وكان قد يجري منهم التغلُّب على الناس بسبب ثروتهم، فاحتاجوا إلى مزيدِ زجرٍ ووعيد وتهديد حتى يمتنعوا عن السوء، وعن أخذ أموال الناس بالباطل، فلا جرم توعّدهم الله بهذه الآية وخوّفهم على أعظم الوجوه)، وإن كان فيها وعظ لجميع الناس وأمر يخص كل إنسان.

(وقوله: (واتقوا يوماً) معناه تأهّبوا للقائه بما تقدّمون من العمل الصالح، وقوله: (ثُمَّ توفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ) هي كقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:7-8]، وقوله: ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان:16]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ

الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:47]

ولعل قائلا يقول: كيف يليق بكرم أكرم الأكرمين أن يعذِّب عبيده، فأجاب عنه بقوله ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾، والمعنى: إن العبد هو الذي أوقع نفسه في تلك الورطة؛ لأن الله تعالى مكَّنه وأزاح عذره، وسهَّل عليه طريق الاستدلال، وأمهَلَه، فمَن قصَّر فهو الذي أساء إلى نفسه).

أيها الإخوة:

قال العلماء: أصل التقوى أن يعلم العبد ما يتَّقي ثم يتقي.

وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس قال: كيف يكون متقياً من لا يدري ما يتَّقى؟ ثم قال معروف الكرخي: إذا كنت لا تُحسِن تتَّقي أكلتَ الربا، وإذا كنتَ لا تحسنُ تتقي لقيَتكَ امرأة فلم تغضّ بصرك، وإذا كنتَ لا تحسن تتَّقي وضعتَ سيفك على عاتقك.

ولما جمع العلماء جزاء التقوى وثوابها ذكروا أموراً كثيرة، أذكر أربعة منها أختم بها، تناسب ما نحن فيه:

- **منها: السلامة من أذى الناس في الأزمات وغير الأزمات.**

بل إن التقوى تورِثك محبتهم. قال الثوري لابن أبي ذئب: إن اتَّقيتَ الله كفاك الناسَ، وإن اتقيتَ الناسَ لن يغنوا عنك من الله شيئاً.

وقال زيد بن أسد: كان يقال: من اتقى الله أحبَّه الناس وإن كرِهوا.

- **ومنها: الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم.**

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران:120]

قال ابن كثير: يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

- **ومنها: حفظ الذرية الضّعاف بعناية الله عز وجل.**

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء:9].

قال القاسمي رحمه الله: وفي الآية إشارة إلى إرشاد الآباء الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بالتقوى في سائر شؤونهم، حتى تحفظ أبناءهم وتغاث بالعناية منه تعالى، ويكون في إشعارها تهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأن الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف كما في الآية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:82].

قال محمد بن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولدَه، وولدَ ولده، وقريتَه التي هو فيها، والدويرات التي حولها، فما يزالون في حفظ الله وستره.

وقال ابن المسيب لابنه: يا بني، إني لأزيد في صلاتي من أجلك رجاء أن أُحفَظ، وتلا الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

- **ومنها: النجاة من عذاب الدنيا.**

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 17-18]

أيها الإخوة:

هذا شيء مما قرأتُ في معاني هذه الآية الخاتمة، ومهما استطاع أحدنا أن يلزم أوامر الله ويجتنب نواهيه فليفعل.

اللهم اجمع على الهدى أمرنا واجعل التقوى زادنا واجعل الجنة مأوانا ومآبنا.

أخرج ابن مردويه عن عليٍّ –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

((يقول الله عزَّ وجلَّ: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببداديةٍ كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.

وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ بباديةٍ كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

والحمد لله ربَ العالمين